# صمود داريا
# ملامح التجربة وعوامل الثبات

عبد الله الرحمون

مركز إدارك للدراسات والاستشارات

05 آذار/مارس 2016



twitter.com/idraksy facebook.com/idraksy telegram.me/idraksy

{أمّا تراب داريّا وجوّها فأقرب ما يكون إلى المدينة المنوّرة}

مؤرخ مجهول


twitter.com/idraksy facebook.com/idraksy telegram.me/idraksy

مع التفهّم الكبير والاعتراف الواجب بأنَّ تكالب الأطراف المختلفة على ريف حلب الشمالي لم يحصل مُسبَقاً في أيِّ موقع آخر من الجغرافيا التي تقع تحت سيطرة الثوار السوريين، فهم يواجهون النظام السوري والميليشيات الإيرانية المدعومة بالطيران الرّوسي من جهة ويحارِبون قوات سوريا الديمقراطية الكردية المدعومة من التحالف الأمريكي من جهة أُخرَى، كما أنهم يرابطون أمام الثغور التي يتربّص بها تنظيم الدولة على مدار عامين ونصف من جانبٍ ثالث. هذا العدوان الثلاثي في ظلّ حلفاءَ مترددين يجعل من المهمّة المطلوبة في الإبقاء على الحواضن المهمة للجيش السوري الحرّ أقرب للأساطير.

من جانبٍ آخر، فإنَّ تساقط الحواضن المهمّة للجيش السوري الحر في ريف حلب الشمالي كَقِطَع الدومينو، يدعونا لمراجعة تجاربَ ونماذج أخرى وُضعَت في ظروف لا تقل صعوبة ولكنها تمكنت من الصمود والبقاء حتى الآن على الأقل، فربما يكون في تجربتها ما يستفاد منه في واقع واستراتيجيات باقي المُدن والأرياف المهدَدَة.

فتجربة مدينة داريا من النماذج المثاليّة للمقارنة والاستقراء في هذا المجال لعدة أسباب: أهمها أنَّها تجربة رائدة حققت نجاحات وسمعة طيّبة في سياق الثورة السوريّة، إنْ كان ذلك على مستوى النضال العسكري ممثلاً بـ"لواء شهداء الإسلام" أو مستوى التجربة الإدارية المميزة ممثلةً بالمجلس المحلي في المدينة. كما أنَّها تُمثل حالة فريدة للواقع الجغرافي القاسي والمعزول عن أيّ بوابة حدودية مع دولة تُساندُ وترفد صمودها ونضالها وذلك على خلاف أرياف حلب وإدلب التي منحتها الجغرافيا هبةَ مجاورة تركيا ولعنتها في آنٍ معاً.

تقع داريا في الريف الغربي من مدينة دمشق، وتعتبر أكبر مدن الغوطة الغربية وأهمها استراتيجياً، يحدّها من أطرافها حي المزة ومدينة معضمية الشام وصحنايا وجديدة عرطوز، يُقدَّر عدد سكانها (قبل الحصار) ٢٥٠٠٠ - ٣٠٠٠٠ ألف نسمة تقريباً فيما تراجع العدد إلى ١٢ ألف تقريباً واقعون تحت الحصار حتى وقت كتابةِ هذه المادة. شاركت الثورة السورية في أيامها الأولى واشتُهِرَت بميلها إلى الحراك السلمي.

أولى عمليات القتل التي مارسها النظام السوري في المدينة بدأت في مظاهرات "الجمعة العظيمة" حيث استشهد فيها ٧ أشخاص. تعاني المدينة من حصار شديد منذ عامين ونصف. الحصار الأول وقع على المدينة بتاريخ ٨ / ١١/ ٢٠١٢م ثم وقعت حادثة ضرب وإزالة الحواجز بتاريخ ١٢ / ١١/ ٢٠١٢م فأعاد النظام حصار المدينة على إثر ذلك بتاريخ ١٩ -٢٠ / ١١/ ٢٠١٢م.

العوامل الصُلبة التي شكّلت حالة النضال والصمود في داريّا لم تكن عوامل منفصلة عن بعضها بل كانت عوامل مكمّلة ومساندة لبعضها البعض ومرّت بظروفٍ قاسية صنعت منها تجربةً ناجزة. لكلّ عامل من عوامل الصمود والبقاء هذه حدوداً تقف عندها ومهامّ محددة موكلة إليها. من الجيد القول

أننا حينما نتطرق إلى هذا النموذج، لا يعني الدعوة إلى تطبيق النموذج بحذافيره فهذا متعذّر وغير دقيق فالظروف والإمكانيات مختلفة، إنما يجب الإفادة من الخطوط العريضة والصورة الإيجابية للتجربة.

**التوازن بين الوعي المدني والحماية العسكرية**

التوازن في إدارة الشأن العام داخل المدينة والذي بُنيَ على عدة ركائز وتفاهمات بين الوعي المدني الذي يمثلهُ المجلس المحلي وبين الدافع في حماية الناس الذي يرعاه العمل العسكري الذي تمثله الكتائب المسلّحة بالإضافة إلى "الحاضنة الشعبيّة" التي تُعتبَر الركيزة الصُلبة التي حَمَت الثورة في داريّا واحتضنتها ودفعت نحو إكمالها. هذه الركائز صنعَت نموذجاً يُحتَذى تجاوزت فيه داريّا الكثير من المخاضات الثورية والمحن والمشكلات التي واجهتها في مسيرتها.

ملامح تشكّل الوعي المدني في مدينة داريا بدأ في عام ٢٠٠٣ م، حيث قامَت مجموعة من الشباب الناضج المدني بالتعبير السلمي عن رغبةٍ بالتغيير وكانَ لهم تأثّر بتيار الأستاذ جودت سعيد إضافةً إلى حماسة شبابية تحمل همَّ التطوير والعمل والانتماء للبلد دون أدلجة أو صِدام حادّ مع الدولة. لكنَّ النظام تعاملَ مع هذه المجموعة الـ ٥٠ (تقريباً) بعنفٍ شديد فسجنَ عدداً كبيراً منهم ونكّل بهم وفتت هذه المجموعة الشبابية الناضجة والواعية وذات الهمّ.

لا أدّعي بذكر هذه الحادثة المهمة في تاريخ داريا الحديث أنَّ هذه المجموعة كانت السبب الرئيسي لإشعال الثورة في داريا -فلا أدلةَ عندي على قول ذلك مع أنَّ الأدلة تتظافر بشكلٍ عام أنّه وإن كانت كل المدن قد تأثرت بدرعا وبالربيع العربي قبل ذلك فإنَّ لكل مدينة ظروفٌ خاصّة دفعتها للتظاهر والانضمام للعمل الثوري-. ولا أستنتج ولا أريدُ أن يُفهَم ذلك من السياق أنَّ هذه المجموعة تُسيطِر على إدارة العمل الثوري داخل المدينة. لكنه يمكنني القول -وبكل ثقة- أنَّ هذه الميّزة "الديرانية" تُوحِي بأنَّ الثلة الشبابية في المدينة تحمل بذور الرُّشد في داخلها منذ زمن وأنَّها تمتلك القدرة على "ترشيد العمل الثوري" وأنَّ لها اعتبار كبير وصوت مسموع ومؤثّر داخل الوسط الذي يقوم بإدارة الشأنِ العام.

لم تُخفِ هذه المجموعة الخمسين بعد تكوُّن عدةَ تشكيلات مسلّحة داخل المدينة ضيقَها من "تسليح" العمل الثوري، خصوصاً أنَّ هذه التشكيلات نالَت تشجيعاً شعبياً ضمنياً في بداية الأيام تَعَزَّز مع الوقت نتيجةً لتراكم عمليات القتل التي قام بها النظام واستمراره رميَ الرصاص على المتظاهرين. هذا الدعم الشعبي الضمني وصلَ قمّتَه مع حصول المجزرة المروّعة التي راح ضحيتها ما لا يقل عن ٧٠٠ شخص على أقل تقدير وذلك في تاريخ ٢٥ / ٨ / ٢٠١٢ م. إذْ استنتج المجتمع الداعم للثورة والذي مال إلى رغبة الكتائب المسلحة حينها -أي قبل حصول المجزرة- الخروج من المدينة استبعاداً لانتقام

النظام من الاحتضان الشعبي له، بأنَّ الانتقام حاصلٌ في وجود هذه التشكيلات وحاصلٌ في عدمها، وأنَّ وجودها يرفع احتمالات منع ارتكاب هكذا نوع من المجازر المفتوحة.

يمكن اعتبار هذه المجزرة انعطافة مهمَّة في تاريخ الثورة في داريا، إذْ بدأت بعدها بعدَّة أيام المشاورات لتكوين مجلس محلي يقوم بإدارة العمل الثوري وترشيده وضبط اتخاذ القرار ووضع التكوين العسكري تحت مظلّة المجلس المحلي. بهذا القرار الهامّ قُطِع الطريق على تغوُّل الرأي العسكري في اتخاذ القرارات الثورية وتم توصيف المكتب العسكري كجزء من المشهد وليسَ المشهد كلّه بالإضافة إلى أنَّه أعاد العمل والقرار العسكري إلى إدارة مدنيّة. هذا فارق أساسي بين داريّا وبين أغلب المناطق الثائرة، إذْ يظهر الفرق بين عمل عسكري تحت إدارة مدنيّة وبين حركة أو كتيبة عسكرية تقوم أحياناً بأعمال مدنيّة.

**لواء شهداء الإسلام: القضيّة الأرض لا الجهاد المعولَم**

تم تأسيس لواء شهداء الإسلام بتاريخ ٥ / ٣ / ٢٠١٣ م، والذي يُعتبر تطوّراً تاريخياً لـ"لواء شهداء داريا" الذي أسسه مجموعة من المنشقين والمدنيين الذي حملوا السلاح دفاعاً عن المدينة. يتكوّن اللواء من ٧ كتائب ومدرسة عسكرية تحت اسم "شهداء داريا" ومركز شرطة عسكرية تابع له وذلك لضبط تصرّفات المقاتلين. اللواء عضو في غرفة "الموك" المسؤولة عن الجبهة الجنوبية لكنه لا يعتمد عليه بشكل كلّي من ناحية الدعم العسكري.

لم يعاني التطور التاريخي للجيش السوري الحرّ في داريا من تقلبات وطفرات عنيفة، على الرغم من حصول بعض الانشقاقات والتكوينات المستقلة عن القرار المركزي التابع للمجلس المحلي ومكتبه العسكري، لكنَّ هذه التكوينات لم تَنَل شرعية كافية لتُصبح ممثلاً عن الإرادة الشعبية في المدينة أو ممثلاً لدى المحافل والتكوينات السياسية في الخارج. لا يعني هذا أنَّه لم يكن لهذه التكوينات المستقلة نضالاً أو عملاً هاماً في الدفاع عن المدينة، ولكنها كانت تعبِّر عن امتدادات لتكوينات أخرى خارج المدينة.

كان للمكتب العسكري ثلاثة أصوات (ممثلين) داخل المجلس المحلي وذلك فيما يتعلّق بالشأن العام في المدينة كما تم تثقيل صوته فيما يتعلَّق بالشؤون العسكرية. مع أنَّ هذا لم يمنع من حصول انشقاقات داخل الجسد العسكري ذاته، فقد انشقَّت مجموعة عن كتائب شهداء داريا التي كانت تمثل معظم العمل العسكري في ذلك الوقت وأسمَت نفسها كتيبة سعد بن أبي وقاص.

كان لموقع داريا المعزول جغرافياً عن بوابات مفتوحة أثراً إيجابياً كبيراً في منع دخول أفراد منتمين إلى تيارات فكرية شاذة عن المجتمع، إذْ أن أغلب المنضمين إلى العمل العسكري في داريا إما جنوداً منشقين ولم يكن لهم مواقع قيادية كبيرة (إذْ أنَّ داريّا من المدن السورية التي لم تكن تميل إلى التطوّع في الجيش لأسباب تاريخية اجتماعية وربما اقتصادية أيضاً، فلم يكن هناك عدداً من الضباط

ذوي الجذور الديرانيّة)، أو مدنيين حملوا السلاح للدفاع عن العرض والأهل لا عن قناعة بأدبيات الجهاد المُعولَم.

هذا الواقع منحَ داريّا مناعةً من الاختراقات الفكرية التي تعزلها عن المجتمع وتجعلها في حالة مفاصلة معه وذلك بالاستعلاء عليه والإيمان الداخلي بجهله وربما بُعدِه عن الإسلام وبدعيته. لا يعني هذا أنَّ العامل الجغرافي أنتجت ناتجاً غير إرادي، فقد كان للثورة من الإرادة الحرة في باقي المناطق المفتوحة من عزل الأقوال النشاز واستبعادها عن الخيارات الثورية ومجتمعات الثورة وحواضنها كما في تجربة لواء التوحيد في حلب في بداياتها.

**المجلس المحلي: عقل دولة**

تحدثنا أنَّ المجلس المحلي لمدينة داريا تم تأسيسه بعد الصدمة التي نتجت عن المجزرة الأولى، وقد تمّ التأسيس بتاريخ ٧ / ١٠ / ٢٠١٢م، مهمة المجلس إدارة شؤون الثورة والاهتمام بالمجتمع وضبط العمل العسكري. هذه الحالة التوحيدية التي ضمَّت الصوت المدني والصوت العسكري تحت مظلّة مدنيّة انبثقت من المجتمع نفسه واستقَت شرعيتها من رضى الحاضنة الشعبية، كانت تعبيراً أصيلاً عن النموذج الثوري الذي أرادت ثلّة داريا صناعته وتصديره إلى أماكن مختلفة.

مع الوقت والتطوّر في التصوّر حول ما يجب أنْ تكون عليه الأمور، خففت الآراء العسكرية داخل المجلس من سُريالية السلميين داخل التيار الثوري، كما تمكنت الآراء المدنية من التخفيف من غلواء القرارات العسكرية وتصرفات العسكريين العجولة والمتهوِّرَة في أحيانٍ كثيرة. مثال ذلك رفض المجلس المحلي من مهاجمة الحواجز التي أقامها النظام عقبَ "الحصار الأول" والتي كان لها أثراً سلبياً، وهو تصرُّف قامت بها إحدى الكتائب عاصيةً قرارات المجلس.

كان للمجلس المحلي فاعلية خارج المدينة أيضاً فقد شارك في أغلب المحاولات التنظيمية التي تتقصد توحيد الجهود وتنسيق القرارات الثورية في ريف دمشق كمشاركته في تشكيل "مجلس محافظة ريف دمشق". كما للمجلس أيضاً ١٥ ممثلاً ومكتب خارج سوريا في عدة بلدان منها الولايات المتحدة وتركيا والسعودية.

الإنتاج الإعلامي الذي يقوم به المجلس المحلي يُعتبر من أهمّ ملامح نجاحاته، نرى ذلك في قدرته على توحيد الصوت الثوري الإعلامي ليكون المعبّر الوحيد والرسمي عن المدينة كما نرى ذلك في قدرته على حشد المجتمع المنتمي للثورة حول القضايا المركزية كرفع الحصار ونقل الأحداث اللحظية. ونرى ذلك في قدرته على ضخّ إنتاجات و"فيديوهات" تبثّ الحماسة في صفوف الجيش الحرّ وذلك بلغة حماسية وعاقلة في آنٍ معاً.

دراسة الأناشيد والأغاني التي يستخدمها المكتب الإعلامي أو يُعيد إنتاجها في أحيان كثيرة بما يتناسب مع روح الثورة وأدبياتها، تُعطي لمحة عن الخلفية الثقافية التي ينتمي لها الشباب القائم

على المجلس المحلي، إذْ تقلّ الأناشيد التي أُنتجت في سياق السلفية الجهادية ونرى اعتباراً ملموساً للأناشيد التي تُحاكي الجهاد الفلسطيني (حماس). كان الإعلام سلاح داريا الأثير ويحمل في داخله لغةً انتمائيّة فريدة، إذْ نراها تحاول التركيز في كل إنتاجاتها على انتمائها الأصيل إلى مجتمع الثورة وربطها لمصيرها مع المصير الجمعي الأكبر.

من ملامح نجاحات المجلس المحلي أيضاً، إدارته للإنتاج الزراعي في المدينة إذْ ظهر ذلك في استراتيجيته للحفاظ على الأمن الغذائي. إذْ أنَّ داريّا من أهم بلدات الغوطة في الثروة الزراعية والحيوانية، لكنَّ هذه الثروة إنْ لم تكن تحت أيدي قادرة على إدارتها وضبط المحصول والاستفادة منه بطريقة ناضجة وواعية ودارسة لحسابات المستقبل ستتبدد بسهولة في ظلّ حصار خانق، خصوصاً بعدما تمكن النظام من قطع الطريق الواصل بين داريا ومعضمية الشام.

## الإسلام اجتماعياً

البُنية الاجتماعية والدينية في داريا محافظة إلى حدٍ كبير كالحال في معظم الأرياف الدمشقيّة، وهي تعتبر من المدن التي تأثرت بالخطّ الإخواني في فترةٍ من فتراتها، إذْ قُتلَ من أبنائها في ثورة الثمانينات وشُرِّدَ عددٌ آخر. مجتمع مدينة داريا مذهبيون يميلون إلى التفسير التقليدي للإسلام دون أيديولوجيا حادة الزوايا ودون مفاهيم منجزَة في بيئات مختلفة ذات ظروف وسياقات تاريخية مختلفة.

على خلاف مدينة دوما التي تُحسب تاريخياً على الحنابلة بل كان لمشايخها اجتهاداتهم المعتبرة داخل المذهب الحنبلي، ولهذا سياقٌ بحثي آخر يدرس التداخل الوهابي-الحنبلي في التأثير على الوضع الاجتماعي في مدينة دوما وعلى الوضع الثوري فيها. كانَ لهذا العُمق الاجتماعي والتاريخي الديني أثر مهماً في منع شباب داريّا من الانزلاق إلى تطرّفات ومناهج معزولة عن السياق المجتمعي.

بالإضافة إلى العمق الديني المتجذر تاريخياً في الحالة المجتمعية في المدينة، كانَ للجماعات المسجدية التي انتشرت قبل الثورة، والتي نتجت كانعكاس عن حالة الانفتاح الإعلامي للبرامج الدينية التي تأثرت بها معظم المدن السوريّة، كان لها أثراً كبيراً في تأسيس نواة التنظيم الذي شكّل القاعدة الصُلبة للنضال العسكري والعمل المدني على حدٍ سواء.

لم ينبع الصمود في داريا نبعاً ولم يسقط فجأةً من السماء، تظافرت الجهود والتفاهمات والوعي بأهمية إصغاء كل الأطراف إلى بعضها والميل لدى الشباب الثوري إلى العمل الجماعي والتوازن بين الرأي المدني والرأي العسكري واحتضان المجتمع المحلي وغياب بوابة أو موقع جغرافي يدخل منها أصحاب الزوايا الحادة والتطرّفات عابرة القارّات بالإضافة إلى البُنية الدينية التي تميل إلى القول الهادئ في الإسلام ممارسةً وفكراً والإحساس العميق لدى المجتمع والشباب الثائر بوحدة المصير ومصيرية التكاتف ووجوبيّة الاتفاق على المسار في المسير. كلّ هذا دفع نحو اشتداد وصلابة عود هذا النموذج الثوري النابع من روح هذه الثورة وتيارها العريض وأدبياتها الكُبرى.